النزعة الداروينية في منهج ديوي العلمي.
ودوره في حل مشكلة الإنسان
Darwinism in Dewey's Scientific Method .
And his role in solving the human problem.

أ / وردة معـزي.

قسم الفلسفة جامعة باتنة1.

philo.wmazzi@gmail.com

تاريخ الاستلام2020/09/27 تاريخ القبول: 2021/11/08

ملخص.

يهدف المقال لتأمل أصول المنهج العلمي الذرائعي و عواقبه ، مما لا شك فيه ان جون ديوي ، استلهم أسس تفكيره لحد بعيد مما ذهب إليه داروين في التأكيد على علاقة الترابط بين الإنسان و الطبيعة ، من هنا تجاوز المنهج الفلسفي التقليدي ، لنهج طريقة علمية استقرائية هدفها التعبير عن القدرات العقلية و الطاقات البشرية ، من أجل خلق فرد يتسم بالذكاء المطلق من جهة ، و تأسيس مجتمع متقدم من جهة أخرى .

غير أن المنهج العلمي، كطريقة للتفكير، و إستراتيجية للفعل، و أسلوب لاتخاذ القرار لدى الأمريكيين في عالمنا الراهن ، لا يضع حدودا فاصلة بين المادي/ و الروحي ، الحيواني / و الإنساني ، النفعي / و الأخلاقي ، و الحق هذه الوحدة المارقة من إبداع ديوي ، باعتباره أول من احدث نقلة نوعية ، في تحويل المنهج الفلسفي من دائرة التأملات الفلسفية النظرية إلى ميدان الممارسة و الخبرة المعيشة ، معتمدا على المنهج العلمي و تطبيقاته المبطنة لقوانين التطور

الداروينية و تفعيلها في واقع الحياة . هذا ما يوضح الهدف المركزي للمقال و المتمثل في تبيين أن :
هذا المنهج يفضي إلى تنمية و تصعيد حجم الصراع و المنافسة و العدوان بين البشر ، الأمر الذي يسمح بتأهيل الرجل كمؤسس و رائد و جذر لزراعة الفكر الدارويني في المجتمع الأمريكي ، و هو الترتيب الذي أدى لخلــق الإنسان البراجماتي، ذلك السوبرمان المتعطش للهيمنة و السيطرة و تقويض الآخر ..احد ملامح عالمنا المعيش و أحد مظاهر امتدادات المنهج االعلمي البراغماتي راهنا.

الكلمات المفتاحية .
المنهج العلمي – البراغماتية -الذرائعية – الداروينية – الصراع من أجل البقاء.

Summary

This article attempts to examine the principles of the Scientific Method and its effects.
The bases of John Dewey's thought are undoubtedly inspired to a large extent by that of darwin's to emphasize the relationship of the correlation between mankind and nature .
By doing so ;he exceeds the traditional philosophical method to follow an inductive scientific procedure that aims to express the intellectual competencies and and the human capacities for the sake of producing an individual that is characterized by an absolute intelligence on one hand and establishing a developed society on the other hand. However ; for the americans at present time he ; the intelligence Method as a manner for thinking ; a strategy for acting ; and a style for taking decisions does not put distinctive boundaries between the materialistic/spiritual; animal/human ; utilitarian/ethical . this defective unit as a temporal creation is regarded as a distinctive step to transfer the philosophical method from the field of the theoretical philosophical reflections on the domain of the living practice and experience ; based on the scientific approach and its hidden applications the Darwinian low of Evolutions and their usage in the real life . This method ; in fact ; leads to develop and raise the amount of the conflict ; competition ; and aggression among people . This fact permits to qualify the man as the founder ; the pioneer ; and the source for

producing the darwinian thought in the American society .This ; also ; leads to create the pragmatic Man the superman ; eager to domination ; control ; and destruction of the other ;… is one of the features of our living world ; one manifestation of the pragmatic intelligence Method ‘s extentions.

key words.
The Scientific Method ; Pragmatism ; Instrumentalism ;Darwinism, struggle for survival.

وردة معزي، philo.wmazzi@gmail.com

المقدمة

.

"تسترد الفلسفة عافيتها عندما تكف عن أن تكون وسيلة تصطنع لمعالجة مشكلات الفلاسفة وتصبح منهجا يستخدمه الفلاسفة لحل مشكلات البشر"[1]

تميز العصر الحديث بسيادة النزعة العلمية ،و انتشارها في حقول علمية وفضاءات فلسفية ،وفي الطليعة نجد التفكير الفلسفي البراغماتي ، قد استلهم روح المنهج العلمي طريقة لتأملاته الفلسفية وأسلوبا لمعالجة طروحاته و مشكلاته الفلسفية والفكرية من هنا تبنى المنهج العلمي ، مقاربة ابستيمية و بديلا عن التأملات الفلسفية النظرية الخالصة ، و مرد ذلك النتائج المثيرة للانبهار في مجالات البحث العلمي ،و التي صارت ملحوظة حتى من قبل الموقف غير العلمي ، والمتمثلة في التقدم المتسارع لانجازات العلم ، حدث ذلك بفضل حيلة المنهج المستخدم و أهمية المسار المنهجي في سبيل الوصول الى نتائج، هذا من جهة ، و من جهة ثانية ، ذيوع صيت نظرية التطور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ،و على امتداد القرن العشرين ، فسح المجال الرحب لهيمنة

الخطاب العلمي ، و النزعة العلمية ، و هو مذهب التطور الدارويني ، أو ما يعرف بالداروينية ، و بدت المفارقة الجديدة في تاريخ الفلسفة واضحة المعالم ، و المتمثلة في الصراع و النضال من أجل بقاء الفلسفة ، كفاحا اجبرها على ارتداء الزي العلمي ، و تبني نزعته تلك التي ايقظها الفيلسوف البراغماتي بطريقته النادرة و غير المسبوقة في تاريخ الفلسفة ، و هو يبذل قصارى مجهوداته في التجديد الفلسفي ميتودولوجيا و ابستيميا ،فراح يؤسس لمنهج علمي في فلسفتة البراغماتية ، هذا المنهج الذي عرف بالمنهج البراغماتي مع رائد هذا المذهب : وليام جيمس ، في حين سمي بالمنهج العلمي تارة ، و منهج الذكاء المنظم تارة أخرى ، مع جون ديوي ، هذا المنهج الذي حاول استجماع شتات روحه من حقل البحث البيولوجي ، نظرا لتأثره بنظرية التطور التي صاغها تشارلز داروين ، وقصة الاستقراء ، باعتبار المذهب البراغماتي تفكير تلتف حول قضايا الواقع و مشكلات الحياة ،و الخبرة البشرية نظرا لما تشهده هذه الأخيرة من عقبات و مشكلات و حتى أزمات يواجهها البشر في واقع حياتهم المباشر ، و في شتى مناحي الحياة المختلفة ، و بالتالي :

إذا كانت جادة إرادة الفيلسوف البراجماتي ، إعادة البناء وإصلاح العلاقات و تقويم الشأن الإنساني ، انطلاقا من الأحداث السابقة، فإن المسألة الأهم : كيف يمكن حل مشكلات البشر ؟ وإجراء مثل هذا التغيير في مجرى واقع الأحداث البشرية ؟

ماهي استراتيجية احداث التغير، في سائر وقائع حياة الإنسان الراهن ؟ و هل هناك امكانية خلق طريقة مضبوطة لحل مشكلات الانسان عمليا،وبشكل علمي وواقعي و سريع؟ .

ماهي المرجعية الفكرية لهذا المنهج و منطلقاته ، و الى أي مدى امكنه تحقيق غاياته ،و ماهي حدود انجازاته و انعكاساتها على الوضع البشري الراهن؟

1- تدابير فلسفية لحل مشكلة الإنسان .

تحيلنا هذه العبارة، للوجه الآخر للبراجماتية ، فكما كانت الفلسفة أحد أنماط التفكير، تفكيرا عميقا، يعتد بالروح التحليلي النقدي ، لذلك يتعين عليها التركيز على الحالة الراهنة لمشكلات البشر، أفرادا أو مجتمعات، فمهمة الفيلسوف، الانكباب على البحث عن آليات، لحل مشكلات المجتمع[2]، بدلا من الانشغال التقليدي، بالهرطقات الكلامية، والحلول اللفظية، والجدل العقيم، ذلك أن مثل هذا التوجه لإحلال فلسفات جادة، تتلاءم ووجهة ، عالمنا الراهن، والمتسارع الخطى نحو التغيير والتقدم، إذ يشهد حركة سريعة، وسيولة غير مسبوقة، في تطور المعارف، وصراع الأفكار والمفاهيم ذاتها، والتي تسبح في فضاء التجريد الخاوي، والترف الميتافيزيقي النظري، لا يمكنها بأي حال من الأحوال، أن تسعف البشرية في واقعها المعقد المعيش، ذلك أنها تنأى عن قضايا الإنسان والأفكار ولهذا فمثل هذه المذاهب الفلسفية، محكوم عليها بالإعدام، من قبل الفيلسوف البراغماتي.

إن ضرورة تحديث، وتجديد، وصقل، الخطاب الفلسفي، بما يتماشى ومشكلات الإنسان الراهن، مسألة جادة وهامة وخطيرة، وتعد بحق من أمهات القضايا والطروحات الفلسفية العميقة، مباردة فلسفية أصيلة، لابد منها، لإدراج وإحلال عاملي: الواقع والتغيير، وما يترتب عن هذا الأخير من تعديل وتحسين وتقدم، في السلوك وفضاءات الحياة البشرية، لعل هذه القضية، باتت من أولى الطروحات الفلسفية، وأكثرها جوهرية وأصالة.

ولما كانت الفلسفة بطبيعتها، تأملا نظريا، لذلك ظلت عاجزة عن تقديم حلول نهائية، مترددة عن إعلان القول الفصل، لكنها بسعة نظراتها، واتساع أفقها التأملي الشمولي، قادرة على استيعاب القضايا البشرية الراهنة، تحليلا وطرحا، هذه القدرة تعد في حد ذاتها، ذات قيمة، إلا أنها تستعصي على العقل العلمي[3].

إن مثل هذا التوجه العملي الجديد، في حقل الأبحاث الفلسفية، يحيلنا للسؤال: ما هي الأداة التي من شأنها التعجيل بتطوير قدرات العقل البشري، والإسهام في تجديد واقع الحياة؟

2-المنهج العلمي عند ديوي أداة التقدم.

إذا كان المجتمع الديكتاتوري يكبت الإبداع، فإننا على يقين ، أن إقرار الحريات الفردية، وحمايتها، يمهد الطريق نحو العمل على تفتح شخصية الفرد، والانفتاح الاجتماعي ونمو قدراته، ومن ثمة، شعور الفرد، بأهميته وقيمته السيكولوجية والانطولوجية، كذات حرة واعية، حاضرة في حركة التقدم الاجتماعي، هذه الأخيرة التي لا يمكن أن تتأسس، على دعائم الصراع الطبقي، وتشطير المجتمع، إلى فئات وطبقات، بعضها يلغي البعض الآخر، في بيئة داروينية ماركسية ضاجة بأشكال وصنوف التنافس، صاخبة بعلاقات العدوان و**"حرب الكل ضد الكل"**، في ظل إنية جماعية مفرطة، تفرضها طبقة من المجتمع، لتكفل مستقبلها على حساب طبقة ثانية[4].

ذلك أن انشطار المجتمع إلى طبقات، لا يعبر عن دينامية هذا المجتمع، وتفاعل علاقاته الإنسانية بايجابية وأخلاقية، بقدر ما يكشف عن وجود خلل عميق في بنية العلاقات الإنسانية، القائمة بين أعضائه، أفرادا وجماعات، حكاما ومحكومين، صراعا تؤطره عوائق جوهرية، عقلية من طبيعة إنسانية، فالبنية التحتية القاعدية، لتكوين إنسان، كعضو نشيط فكريا، واجتماعيا، لا تتوقف على شروط مادية، بقدر ما تديرها عوامل بشرية، خاصة بالإنسان من حيث هو كذلك. و على سبيل المثال، الزيادة المسعورة لإنتاج العمال للسلع، بطريقة لاغية لنمو العقل، مانعة لإمكان تذوق لذة الإنجاز في العمل، توضح حماقة الهوة في فصل الإنتاج عن الاستهلاك، ومن ثم، تجريد الحياة الحاضرة من مظاهر الرفاه والثراء، وحدوث الكوارث والأزمات الاقتصادية، أكثر من ذلك، فانتشار الفراغ والنكبات، في المجتمع الرأسمالي، منطقها، إنها بمثابة شرنقة

للقدرات العقلية، في ظل مقاومة لإمكانات الإبداع، أزيد من هذا إنها بيئة اجتماعية اقتصادية باعثة على تحريض الانحراف، وفتور الهمة[5].

المسألة تحتم شن هجوم على السياسية الليبرالية، مادامت شطرت المجتمع إلى طبقات، ليس بسبب تأسيسه على المنافسة، ولكن نتيجة إصرارها على استغلال "الإنسان"، لصالح ربح أناني ليبرالي، مؤقت وشرس، لإن المنافسة السلبية تعبر عن **الصراع** الفارغ، المدمر للقوى البشرية: الجسدية والعقلية للفرد والمجتمع، آجلا أم عاجلا، طالما هو يفكك ويبدد الجهود البشرية، معنى ذلك أن السياسية الاقتصادية للبارونات، يؤدي منطقها لاستغلال ولاستبداد الإنسان، بشراهة شرسة، وهي مسألة يتضمن منطقها تعبيد الطريق نحو قمع القدرات الفردية، وإلغاء الذات، ويترتب على ذلك، تخلف المجتمع، ولذلك نجد المجتمع الديمقراطي الأصيل، يعبّر عن عدائه المتأصل للتقسيم الطبقي، ومعاداته لإهانة الكرامة الإنسانية، ومقته اللامحدود، للنزعات المعادية لفردانية الإنسان، من حيث هو كائن بشري ،له خصوصياته السيكولوجية، الذاتية المستقلة، وهذه القضية تمت بوشائج صلة للمقولة الكانطية ، **"الإنسان ذاتا حرة مستقلة".**

إن الشرور التي أصابت المجتمع البشري –ليبراليا كان أم اشتراكيا- بألوان الظلم، والردة الأخلاقية التي أصابت التقدم الاجتماعي ،يوضحا أن التقدم الاجتماعي محكوم بقاعدة، الحتمية الاقتصادية[6]، وبغض النظر عن التوصيف الماركسي أو البراجماتي، لا يمكن بأي حال من الأحوال، إنكار دور العامل الاقتصادي في رفاه الإنسان وتحسين ظروف حياته، ومن ثم تهيئة أجواء تفتح شخصية "الفرد"، وتأمين شروط التقدم الواعد "للمجتمع".

على أن نمو الفرد وازدهار المجتمع كلاهما فضيلة، لا تتحقق إلا في إطار الإبادة والحرب، ولكنها حرب ضد كل محاولة من شأنها أن تحد من ذكاء الفرد، أو الجماعة في الممارسات الفعلية في واقع الحياة العملية، ولذلك :

3-أوصول المنهج العلمي عند ديوي .

هو الآلية الفعالة لتحقيق التقدم الاجتماعي، والبحث عن حلول لمشكلات الإنسان، والتقليل من حدة التوتر، وتقليص حجم **الصراع**، وقمع مجالاته، ذلك الصراع المرادف لشرور البشرية وبؤسها، فاعتقاد الماركسية، بزيادة حده وحجم **الصراع** بين الطبقات يولد التوتر والتغير الراديكالي الثوري المفضي **للتقدم**، لاشك أنه اعتقادا مريضا، يعاني من شوائب ذاتية وخلفيات سيكولوجية، مسيئة للنوايا الحسنة، لفكرة التقدم، بدليل أن **الصراع** على مر الزمان وبشهادة التاريخ والواقع، أنه مولد للتوتر، ويصيب قدرات الإنسان وطاقاته بالصدأ و التآكل، من ثم فهو نذير تخلف، وموت وفناء، ليس العكس، **فالصراع** بين الطبقات، الاجتماعية، أفرادا و جماعات، إن هو إلا آلية تدميرية وتقهقر وحرب وإبادة وخسران مبين، وآية ذلك، أن هذه الحقيقة الجوهرية **للصراع**، ما أدت لإخفاق الماركسية قبل نهاية القرن العشرين ...ومن هنا فالدور المنوط بالفلسفة، يتطلب السعي لتطوير "**منهج علمي** تجريبي" بوصفه الميكانيزم الفعال والسري لحل مشكلات البشر فرديا واجتماعيا.

إن تأمل الواقع والتاريخ البشري، يبرز مجالات واسعة، ومشاهد غير رائدة لإخفاق الخير الإنساني، في ميادين شتى من الحياة البشرية، ورغم ذلك هذا الكلام لا يحمل الدعوة لليأس والحسرة، والاسترجاع الحزين، طالما الفرصة متاحة على الدوام، لتغيير الواقع، وتحوير مظاهر الحياة، وإدارة شؤونها حسب رغبات البشر وتصميمهم، لا يتحقق ذلك إلا بفضل اقتناء أداة فعالة، ورائدة وأكثر نجاعة لحل المشكلات الإنسانية والاجتماعية، تلك المشكلات التي تثير انزعاج الناس، على مر الزمان، وتقضي على الوجه الطيب المرح للوجود والحياة.

إن "المنهج العلمي" أو "منهج الذكاء المنظم" أو "المنهج البراغماتي" تسمية مختزلة، لمنهج عظيم، يتطور باستمرار، خاصة، بالملاحظة، والتجريب، والبرهان والكشف[7].

والحق هذا المنهج **متأصل** في الطريقة التي صاغها "فرانسيس بيكون"، بوصفه المؤسس الحقيقي للفكر الحديث، لقد تميز "بيكون" بالتركيز على أهمية إجراء التجارب، أو ما أطلق عليه "التجريب الفعال" في مقابل المنهج التأملي النظري السلبي، لوقائع الطبيعة.

إن إبراز ميزة "المنهج التجريبي"، أنه يرغم الوقائع على الكشف عن نفسها، والبوح بحقيقة أسرارها[8].

لكن، إذا كانت وقائع الطبيعة ميدانا موضوعيا مستقلا عن ذهن الباحث، ومجالا لتطبيق المنهج العلمي، إذن: فماهي البيئة التي يطبق فيها هذا المنهج الديوي ،بما هو منهجا لتفعيل الذكاء و الابداع البراغماتي ؟ .

لما كان هذا المنهج الأخير، هو ما يوضح للإنسان الاتجاه الفكري الإيجابي، والمؤدي لتطوير قيمه الفعلية[9]، ذلك أنه ما دام الإنسان، كائنا حيا،بالدرجة الأولى، يعيش في وسط اجتماعي وطبيعي، شائك بألوان العقبات، والحواجز، والمشكلات، المنبثقة عن طبيعة الحياة، والمتجددة باستمرار، جراء علاقته ببيئته، الاجتماعية والطبيعية، لذلك فلا مخرج من أزماته.الا تطوير طريقة للتكيف مع بيئته الشائكة وارغام مختلف مواقفه الاشكالية المعقدة ،على الكشف عن نفسها والبوح بحقيقة أسرارها.

ما هي البيئة الملائمة لتطبيق هذا المنهج البراغماتي العلمي ؟

ما دام منهجا علميا ، اذن فهو المنهج الذي يوضح للإنسان الاتجاه الفكري الإيجابي والمؤدي لتطوير قيّمه فعليا بما هو كائن حي بالدرجة الأولى، يعيش في وسط اجتماعي وطبيعي، شائك بألوان العقبات والحوافز والمشكلات المنبثقة والمتجددة باستمرار، جراء علاقته ببيئته، السوسيوطبيعية، لذلك فلا مخرج من أزماته، إلا باستخدام قوة الذكاء ، ليس العقل قوة ميتافيزيقية، بقدر ما هو عضو بيولوجي ، ظيفته التكيف ، بواسطة اختراع الحلول العملية، وتخيل الفروض، كجملة من الممكنات والعلمية، التي يتخذها وسيلة أو أداة، للتغلب

على مشاكله، وتجاوز عقباته، تلك التي تفرضها البيئة الاجتماعية و الطبيعية ،وبالتالي، الفكر بما هو قوة الذكاء العملية ، ليس إلا أداة ،اصطنعتها الطبيعة كحيلة ،تفيد الكائن في تحقيق التكيف .

وعليه هذه العملية تتطلب إتباع خطوات ، و بالتالي:

4-مفهوم المنهج العلمي عند ديوي و خطواته.

. Problomatic Situation . **أولا: موقف إشكالي.**

لا يجد الكائن البشري نفسه مضطرا للتفكر، وتلمس طريق حلول عقلية مبتكرة، إلا إذا وجد نفسه إزاء مشكلة معينة، إن اقتناع الفرد وتسليمه ، بأن يقف ساكنا إزاء مشكلته أيا كانت ،لهو وضع يصيب بالعمى والذهول والعجز، ولذلك فإمكان استخدام مصطلحات إيجابية، له طاقة هامة في دفع عجلة السيكولوجية والذهنية، ومن ثم إمكان الخروج بحلول مبتكرة، وعليه الموقف الإشكالي المعبر عن عجز الكائن البشري، عن التفاعل مع محيطه، إنه يتطلب التخلي عن الأساليب التأملية، التقليدية، والتذمر الكئيب، واللجوء لطريقة علمية تجريبية في التفكير، ورياضية الميول السيكولوجية و التي من شأنها أن تسهم إسهاما بالغ الأهمية، في تذليل العقبات والسيطرة على الواقع بروح عملي و رياضي ،وبالتالي السيطرة على الموقف الإشكالي، وتجاوز الوضعيات المعقدة، وأصناف الحواجز المعيقة للسلوك البشري، ومن ثمة ، التنشيط والتحوير الذكي للواقع، و المؤسس على الملاحظة الاستقصائية، وفحص الفروض كحلول ممكنة، انتقائية بما هي قابلة للتطبيق و اختبار معيار مدى صلاحيتها لتجاوز الأزمة[10].

هذا يقودنا لطرح السؤال: ما هي المرجعية الفكرية للمنهج العلمي الذرائعي؟

هل هذا المنهج قادر على تقديم تبرير كاف للحقيقة ؟

ألا يسوقنا هذا المنهج للوقوع في النسبية السفسطائية القلقة؟

5- أصول المنهج العلمي عند ديوي .

أولا:يتأسس المنهج العلمي البراغماتي، على ابستمولوجيا ، تقع في مأزم تقاطع **البراغماتية مع الداروينية** بمعنى أن البراغماتية ، اتخذت من الخطاب الدارويني ، مقاربة منهجية ، هذه المزاوجة ، تنطوي على ذكاء وشجاعة غير مسبوقة في تاريخ الفلسفة، و في منحى تطور الميتودلوجيا ، ذاك أنها تعبير عن قرار معرفي هام و شائك ، بما تمثله من جرأة في نقل فكرة التقدم و مشكلة الحقيقة من المطارحات النظرية إلى محك التطبيق العملي المباشر، وهو خيار يعتبر المنهج العلمي البراغماتي بما هو منهج الذكاء ، الطريق الابستمولوجي الملكي للإدلاء بالقول الفصل في المشكلات المفاهيمية العالقة و التي لطالما تخبطت فيها الفلسفة على مر تاريخها ،و علاوة على ذلك ، عند العودة للمدونة الديوية و قراءة نصوص هذا الفيلسوف الذرائعي الدارويني خاصة في أعماله المتوسطة والمتأخرة في مرحلة نضوجه الفكري ، نجد هناك اسقاط واضح للعبارات الداروينية التي استعارها من نظرية التطور و من"***أصل الأنواع"*** على وجه الخصوص ، و راح ملبسا مفاهيمه الأداتية حلة داروينية جريئة التمظهر الدارويني- مؤمنا و مشيدا ايمانا راسخا لا يساوره الشك أبدا ،إذ لا مجال للشك أن "من قام بحل أقدم المسائل في الفلسفة المعاصرة ، و أن من عجّل بانبثاق مناهج جديدة ومقاصد فريدة و قضايا حديثة ، إنما يتمثل فيما انتجته الثورة العلمية التي بلغت ذروتها مع كتاب أصل الأنواع" 11.

6-مجالات تطبيق المنهج العلمي الديوي و أهداف استخداماته.

إن الاستعمالات الواسعة ، للمنهج التطوري ، سواء داخل الدوائر الفلسفية أو خارجها ، تبيّن مدى ما حمل هذا المنهج الجديد من هم بحثي و اجتماعي ، بما هو منهجا لإقامة **مشروع التقدم** الاجتماعي..

و لذلك فمنهج الابدع البراغماتي الأداتي العملي ، يهدف للتغيير الاجتماعي عن طريق تغيير البنية الفكرية و القيمية ،بمرجعيتها الاعتقادية للحي البشري من

حيث هو كذلك،انه المنهج الرامي لتغيير ما بنفوس الناس ، تغييرا ذاتيا جوهريا ، ينهض على انتقاء الأفكار و المعتقدات ، متخذا من البيئة التي يعيش فيها حقلا حيويا لتفعيل طاقاته البيولوجية : الحركية السلوكية و الذهنية ، مواجها لواقع الحياة الممتلئ بأصناف المعاناة و العقبات و التحديات معتدّا بإرادته المتقدة ، و إصراره على الكفاح و النضال و الصراع ما بقي منه عصب نابض.. صراعا تستدعيه طبيعة الحي البشري بوصفه جزء لا يتجزأ من منظومة الطبيعة و قوانين التطور ، .. إذ أن نضاله الهادف للتكيف مع بيئته تحت إلحاح عامل المثابرة و المبادرة ، لتحسين و تعديل ذاته ،بواسطة النشاط الواعي الموجه لغاية محددة سلفا إضافة لتطوير و تغيير وسطه ،بما يلبي حاجاته و يجلب له الرضى و الرخاء .

ولما كان التغيير مرادفا للتقدم و التطور ، إذن ، فالتغيير الذي يهدف إليه المنهج العلمي ، يحمل رسالة التقدم الاجتماعي ، و هي بلا شك رسالة جليلة ، انبنت على التحدي ، و المتمثل في الإقرار بأن تأسيس الحقيقة على المقاومة و التحدي لمختلف أشكال العقبات و الإشكاليات ، موقفا قيميا أكثر منه برهانيا منطقيا ، انه موقف حيوي متعمد ، مؤسس على إعادة قراءة العلاقة بين الذات و الموضوع ، الإنسان و الطبيعة ، الخبرة و الوجود ،علاقة يقرها و يدعمها مبدأ **الصراع من أجل البقاء** ، الذي يقوده العقل / الجسم و ينظمه للانتصار على مختلف التحديات و الحتميات ، الذاتية و الخارجية ، تحديا منظما ، يوجهه تخطيط الذكاء المطلق بما هو انجاز عملي و علمي و بالتالي فهو منظم ل: العقل البراغماتي الواعي.1

7 - تعقيب أو مناقشة تقيمية.

إن المنهج العلمي البراغماتي ، يستند الى مرجعية ابستيمية هادفة للدفاع عن فكرة واحدة ، و من هنا يمكن أن نجد لها ثغرات منهجية.. نلتمس في هذه المرجعية المنهج العلمي الأداتي، منهجا مبتكرا ،إلا انه لا يخل من عيوب ،بوصفه

نتيجة لموقف اتيقي ،حيث أن القراءة الابستيمية لخلفيات هذا المنهج تكشف أنه انعكاس لظرفية معينة .

و هو أزيد من ذلك مناضلا ، بما هو مبلور لتلبية حاجة تاريخية محددة ، تمهدا لحركة تغيير اجتماعي تعتد بهندسة تفعيل الذكاء البشري في إطار الراهن و الاجتماعي و العملي أيضا .

إن **المنهج العلمي أو منهج الذكاء المنظم** ، قام لصياغة و تشكيل إنسان واع برسالته في إحداث التحول و التغيير الذاتي و الاجتماعي..

ولهذا فالمنهج العلمي البراغماتي ، إستراتيجية ل :صناعة حلول ممكنة و ذلك بإبداع أفكار جديدة، و معارف متطورة ، و خطط للتكيف مع الواقع ، و بالتالي، فهو إستراتيجية للتخطيط للمستقبل .

و باختصار مفيد ، انه منهج لصناعة **الإنسان الذكي** ، والملاحظ أن هذا المنهج البراغماتي ، يسير في خط مفاهيم **نظرية التطور**: مقتديا بعباراتها الطنانة ،موقنا أن المشاكل لا يمكن حلها إلا عندما ، توجه شطر العمل ، و من ثم **تعديل** السلوك غير أن حلها سواء انطوى على قيم الخير أو الشر ، فانه متوقف على ضرورة حضور طريقة محددة و مضبوطة الخطوات سلفا. من المرجح أنه كلما زاد الإحساس بالمشكلة بشكل أقوى ، كلما عجل بالبحث عن حلول لها ، من هنا وجب أن يكون هذا المنهج أكثر مرونة و انفتاح وتطويع ،للواقع و للفكر ، و من واجب الفلسفة أن تطور طريقة ديناميكية تساعد على تصور حلول لمشكلاتها.

إن المقاربة المنهجية البرجماتية ، تشيد بالعمل و التركيز على مشكلات الناس ، في الواقع المعيش، و لذلك فهي جديرة بتزويد المرء **بمنهج** لمواجهة الواقع و تشعب إشكالاته ، لأجل تعديل العوامل وتحسين الظروف ، و تقويم القضايا المتضاربة في الحياة، هذه الطريقة التي اطلق عليها جون ديوي المنهج العلمي أو المنهج البراغماتي، انه المنهج الذي ينطلق من التأسيس:

اولا/ البراغماتي العملي للحقيقة.

ثانيا/ الإشادة بالممارسة العملية للمنهج العلمي .

لهذا يسعى **المنهج العلمي** " منهج الذكاء" ، لصياغة مبادئه و حلوله ، على أسس علمية ، بروح واقعي

و موضوعي ، و منه فهو يقصي أي افتراضات ، تتعارض و منطق الروح العلمي ، إن مضمون هذا التوجه ، أن هذا المنهج، يقصي كل الأفكار و الفرضيات ، الدغماتية الزائفة ، لأنه يبتعد عن شرنقة الميتافزيقا المغلقة .

هذا المنهج إذ يسير في طريقه ، متلمسا النور ، للتبصر بقضايا الواقع ، و مشكلات الإنسان العملية ، فانه كمنهج علمي، أو **منهج الذكاء البراغماتي** ، يتأسس على قواعد مضبوطة ، تسعى للكشف عن المستقبل ،و منه يمكن الارتكاز على هذا المنهج ، لبلوغ مستقبل واعد و أكيد، و لذلك فهو النهج المتميز بالثبات بمعنى التماسك الداخلي ، بالنظر لاستناده لخلفية علمية ، من أجل تحقيق رغبة الحي البشري في الرضا و النجاح، و طلبا لمزيد من الخيرات و الفضائل ، بالمعيار البراغماتي لتصور الخير ..

انه المنهج الذي يقهر الطبيعة و يحور طبيعة الإنسان* ذاتها ، و يطور مهاراته و قدراته ، و يوسع فضاء مكتسباته و منافعه ، كما يفسح المجال ، لاستعباد عقول أخرى . بناء على ما تقدم ، يتحتم السؤال:

ألا يمكن اعتبار" الأمركة" أو " العولمة" ، اعني الهيمنة الأمريكية على العالم ، امتدادا طبيعيا لهذا المنهج العلمي، بوصفه منهجا للذكاء العملي ، و الإشادة بمقولة **البقاء للأقوى** .. التي تفرض سلطانها بلا حدود و لا سدود على الآخر، معتدة بذكاء القوة بدلا من قوة الذكاء .. متجهة لتوسيع نفوذها دون أية قيود ، على العالم ، كمجال حيوي ، دارويني نيتشوي ، تدير شؤونه قاعدة **الصراع من اجل البقاء** .. ألا يحق القول بان المنهج البراغماتي العلمي الذكي، تقنية لصياغة **الإنسان البراغماتي** ؟ أو حيلة لتسويغ جبروت السوبرمان الأمريكي بما هو الإنسان الأخير أو خاتم البشر..؟؟؟

إن الاعتقاد بالذكاء المطلق منطلقه الإيمان البراغماتي **بقداسة الشخصية البشرية**، إيمانا راسخا قويا ،و العاكس لبعدها الإنساني، و الرامي عنوة لتأليه الذات البشرية ، يحدد مساره **الإنساني المتكامل** في محاولته للخروج " بالإنسان " من دائرة العبثية و العدمية، إلى فضاء الحياة الرحب المفعم بألوان النشاط المتدفق الخلاق و الجدي أكثر من ذلك ، فضاء الذات المبدعة **والإنسان الأعلى، فلسفة توكيد الذات**، والبحث عن نمط من الحياة أفضل من الراهن، في مقابل فلسفة إلغاء الذات البشرية ، إلا أنها فلسفة مؤسسة على الاعتقاد المطلق بالمبادئ الداروينية ، مشيدة بقيم البقاء التي تستمد الدعم من الكفاح المتواصل ، و **الصراع من أجل الوجود** ..صراعا يضع الإنسان في مقابل الطبيعة ، لاغيا كل نزعة روحية ماورائية.

و لذلك ، فمضمون النزعة **الداروينية** هو الإعلان عن ميلاد **مفهوم جديد للإنسان** أكثر مرونة ونسبية، مفهوما يتسع كلما ضاق حد " المطلق " كسلطة فكرية قاهرة لإرادة الإنسان الحرة وقدراته على الذكاء والجدة والتحدي والتطور، وإثبات الوجود، وبالتالي، فالنزعة البراغماتية الداروينية الديوية مدركة لظاهر **الصراع** بين مفهوم منهج االابداع ،من جهة ، ومقتضيات الحياة، **كإطار جديد للصراع** بين الإنسان والطبيعة،من جهة أخرى، و من هنا، فالخطاب البراجماتي الدارويني على درجة من الاتساع بحيث يسمح بتدخل واستدراج عناصر متناقضة، إنه يقدم نموذجا جديدا لقراءة العلاقة بين الذات والموضوع، وبين الإنسان والعالم، بين الفرد والطبيعة، علاقة مؤسسة على **الصراع** الذي تفرضه الطبيعة ، وطبيعة الإنسان ذاتها في واقع الحياة ، و الذي تقوده **قوانين التطور**، التي صاغ في ضوئها مشروعه في التغيير الاجتماعي ..و الهادف لخلق **الإنسان الذكي** ذكاء مطلقا، وهي رؤيا منطلقها المفارقة الغريبة في تقديس الذات في عرف التوجه الليبرالي، في ايمانه بأن فردانية الإنسان أسمى من كل الاعتبارات، لكن هذه المنظور مآله تدمير الإنسان، والإهانة الموجهة لكرامته،

رغم أن فلسفة ديوي وفكره يشكلا خلاصة ثقافة **المجتمع الأمريكي**، فهي بمثابة إنجيل النهضة الأمريكية، قوامه عرض مشروع تغيير وتطوير المجتمع تطويرا جذريا، الذي يتخذ من الإنسان محورا له، لأن هدفه خلق " **الإنسان الأعلى**" على **النموذج النيتشوي**، ولأن مضامين فكره تشكل مفتاح لعلم الحاضر، والمستقبل، حاضر الثقافة والمجتمع الأمريكي، ومستقبل انتشار موجة البراجماتية الداعية **لمشروع النظام العالمي الجديد**، ولهذا فإن فلسفة ديوي، وبالنظر لاهتمامه بالذكاء المطلق و كيفية اطلاق العنان لتطوير قدرات الأمريكي على الابتكار و الذكاء .. كمحور في كتاباته و منهجه التربوي ،لذلك فهو قدم الدعم التقني والميتودولوجي، و المتمثل في التأسيس لعلم الآفاق المشخص في العولمة، و من ثمة انقلاب الخطاب الفلسفي العبثي إلى خطاب جدي ، ولكنه خطابا **داروينيا** ، حامل لبذور **العدمية**.بالنظر للآثار الخطيرة التي تعلي من شأن **الذكاء المطلق** جراء تقديس " **الإنسان الطبيعي** " الغريزي والتأكيد الصارم على مبدأ **الصراع** أو **الكفاح** كمطلب ضروري لتحقيق التلاؤم و التكيف الناجح الايجابي مع البيئة..و مع العالم ، تأكيدا لمدى صلاحيته للبقاء و السيادة ، و مدى إسهام **البراجماتية الداروينية** في فرض الاعتراف والتأسيس لمشروع المقاربة الجديدة حول " **عظمة الإنسان** "، و الذي دخل طور الإنجاز على حساب خصوصيات وثوابت **ومقدسات** من طبيعة روحية ذاتية وموضوعية، ثقافية محلية، ودينية عالمية لا تقوم على مبدأ الولاء **للإنسان الطبيعي** والاعتراف بدوافعه **الغريزية**، بقدر ما تميل لترجيح كفة **مثله الروحية** العليا، ذلك أن القضايا التي أثارتها **البراجماتية الداروينية** لم تخرج عن إطار **الداروينية الاجتماعية** ، و قاعدتها اللاانسانية المتمثلة في « **البقاء للأقوى**»، وبهذا فـــهي فلسفة « **اللامعقول** » ونظرية تفسر الأعلى والأرقى برده للأدنى، وحضارة العودة بالإنسانية إلى البدائية، و منه:

8 - الخاتمة :

فقصة الذكاء المطلق و المنهج العلمي المفضي للابداع و التفوق البراغماتي عمليا ، مجرد مصطلحات طنانة،مبطنة للرغبة في اندفاع نزعة غريزية مسعورة ، عجلت بدخول العالم مرحلة جديدة من الصراع ، منطقها حرب الكل ضد الكل ، بدأ بالتنظير لتأصيل الصراع ، بين الانسان و ذاته ، بين الانسان و الطبيعة ، بين الانسان و الآخر، و هي نتيجة طبيعية، افرزتها البراجماتية الداروينية الزائفة.. مما يفضي للتساؤل: أليست البراغماتية الديوية الداروينية ، واحدة من المرجعيات الفلسفية المركزية ، المنظرة لنظرية الصراع ؟ .. ألا تؤول هذه الفلسفة لنزعة تدميرية في آخر التحليل.. ؟ و التي تعدّ بحق أحد العوامل التي قادت أحداث عالمنا الراهن للفوضى ، والقهر ، والعنف والإرهاب الكوكبي باسم العولمة ..، المبطنة لنية أمركة العالم ، في مقابل إلغاء وجود الآخر و سحق هويته التاريخية والحضارية ، تماما كما فعلت أمريكا مع العراق ، بما هي الرائد الأذكى ، المرتكز لقوة الذكاء، والتخطيط الاستراتيجي، البراغماتي الدارويني .. ما هو السبيل لإخماد سعير الاندفاع الغريزي، والنهم الذي لا يرتو لحب السيطرة والتملك وشراهة تقويض الآخر ، بدأ بالهنود الحمر داخل أمريكا ، ثم اتساع رقعة العدوان الشرس المباشر تارة ، و المقنّع في الحرب اللطيفة و السياسة الناعمة، تارة أخرى ، والتي تنتهجها الولايات المتحدة استراتيجيا تجاه مختلف شعوب العالم..؟؟.

بناء على ما تقدم يمكن الإقرار بان المنهج العلمي البراغماتي الديوي ،بما هو منهجا لخلق وتجذير الصراع ، ينقض الاعتقاد بتوظيف الذكاء ،و هي نقيضة تكشف عن الوجه الشرس لنزعة ديوي الداروينية الاجتماعية و تجلياتها في

الواقع الامريكي راهنا،بوصفه بيئة خاضنة و مغذية و مسهمة في اشاعة و تصعيد حجم الصراع كوكبيا .

الهوامش.

[1] John Dewey and Others, **Creative intelligence**, Essays in the Pragmatic Attitude, NewYork, H.Holt, 1970, p 65.

[2] جون ديوي، **إعادة البناء في الفلسفة**، تر/ أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2010 ، ص 54.

[3] برتراند راسل، **حكمة الغرب**، ترجمة/ فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة، الفنون والآداب، الكويت، (د.ت، د.ط)، ص 216.

[4] جون ديوي، **الطبيعة البشرية والسلوك**، تر/ محمد لبيب النجيحي، مؤسسة فرانكلين ، القاهرة، 1963، ص 284.

[5] جون ديوي، **الطبيعة الإنسانية والسلوك**، تر/ محمد لبيب النجيحي، مصدر سابق، ص ، ص، 285-286.

[6] John Dewey, **Liberalism and Social, Action**, New York, Amherst;Mass; Prometheus;2000; p 60.

[7] جون ديوي، **إعادة البناء في الفلسفة**، مصدر سابق، ص 61.

[8] المصدر نفسه ، ص ص، 61-62.

[9] جون ديوي، **إعادة البناء في الفلسفة**، المصدر السابق، ص 34.

[10] جون ديوي، **البحث عن اليقين**، تر/ أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960، ص 193.

11 John Dewey. **The Influence of Darwin on Philosophy** and Other Essays in Contemporary Thought New York: Henry Holt and Company (1910) p -19.

12 John Dewey; **Experience and Nature** , Editor of Open Court and Monist .2013 ; USA. P-277.

* في كتابه ***الطبيعة البشرية والسلوك الانساتي*** ، يشرع ديوي في فحص مفهوم الطبيعة البشرية فحصا نقديا

موضحا أن الدعاوى المسيحية و الهيومية – نسبة الى دافيد هيوم- ، مجانبة للحقيقة ، في اعتقادها بأن طبيعة الإنسان ثابتة و أن الإنسان شرير بطبعه ،(من مقدمة المؤلف).. و أزيد من ذلك ، إن مثل هذه الدعاوى مثيرة لعدد من المشكلات الميتافزيقية المغلقة ، كما تطرح عقبات أمام امكان انفتاح الكائن البشري على عالم التطور و التغيير و التقدم ، و لذلك فالدعاوى سالفة الذكر ، مردودة من وجهة نظر الذرائعية الداروينية ، طالما هي اعتقادات تثير الشك في قابلية الإنسان للتغيير، و التطوير و بالتالي ، فهي تطرح تحديا أمام العقل ، و وظيفة الذكاء و سائر قدرات الذهن البشري ، المتمثلة في ابداع حلول لمشكلات الإنسان و السعي لتحسين ظروف حياته ، تحسينا يتحرك على مسار خط التقدم .. ان الذكاء ، و العقل ، و سائر امكانات الذهن البشري طاقات و قدرات انطوت عليها الطبيعة البشرية ، فالتخطيط المقتضب لخلفية مفهوم ديوي ، للطبيعة البشرية ، و الذي يستند للمرجعية الداروينية ، و الاعتقاد بانحدار الانسان من أصل غير انساني ، يقدم لنا أدوات الفهم و امكان معرفة أبعاد تصوره لقصة **العقل البشري** ، الذي يعدّ مجزوءة من سياق مسيرة **التطور** ،و تصور الإنسان بما هو جزء من الطبيعة المادية ، لقد بيّن ديوي أن التقدم لا يحدث إلا بالتفاعل بين الطبيعة البشرية و البيئة " بين ما هو طبيعي و ما هو اجتماعي" من هنا أسس ديوي " موقفا علمانيا – داروينيا- جديدا تجاه علاقة الانسان مع الطبيعة " و هذا ما سعى لتجذيره من خلال منهجه البراغماتي التجريبي منهج الذكاء الابداعي.. (**فلسفة التقدم** ،دافيد .و مارسيل ، ترجمة / خالد المنصوري ، مكتبة الانجلو المصرية ،القاهرة ص ،ص 146- 147) .